شعراء الرياضة

# أدب البارودى وشعره

## بمناسبة انقضاء مائة سنة على مولده

للأستاذ أحمد الزين

أما وقد تحدثت إليك فى الفصول السابقة عن ألفاظ الشعر ومعانيه؛ وبينت أن للشعر ألفاظاً ومعانى مختصين به، لا يشاركه فيهما غيره من الكتابة والخطابة؛ وأوضحت الفرق بين المعانى الشعرية وغيرها من المعانى البسيطة؛ ومثلت لجميع ذلك بما أوضحت به الغرض من شعر القدماء والمحدثين؛ فانى متحدث إليك اليوم عن شعراء الألفاظ فأقول:

قد يفرط بعض الشعراء فى تحسين الألفاظ وتجميل العبارات مع خلو الشعر من المعانى الحية، والأغراض الملائمة للبيئة، والتفكير الساير لثقافة العصر، فلا ترى فى القصيدة على طولها، بل فى الديوان على ضخامته صورة صادقة منتزعة من حياة الأمة ولا من حياة الشاعر نفسه، بل يعمد الشاعر إلى معانى سواه من الشعراء المتقدمين فيرددها فى شعره، ويحشو بها قصائده، ويحاول أن يخدع القراء عن هذا التقليد بألفاظ يجيد تهذيبها، ويحسن اختيارها، ويجرى فيها على مذهب القدماء من الفخامة والجزالة والمتانة، ومع هذه الفخامة وتلك الجزالة فانك تشعر فى مجموع القصيدة وفى كل بيت من أبياتها ببرودة الموت وسكون الفناء، كأنك ترى جسما ميتاً يبدو الجمال على محيّاه، وما يجدى الجمال مع فقد الحياة؟ فانه مما لا نزاع فيه أن للمعانى كذوات الروح أزمنة محدودة تحياها، وأعماراً معدودة تعيشها؛ وأن من المعانى ما ينقضى أجله بمجرد انقضاء الحادثة التى قيل فيها، فاذا قيل بعدها عدّ من المعانى الرثة البالية؛ ومنها ما يخلد على توالى العصور وتعاقب الأجيال ويظل جديداً على قدمه، يغالب الزمن بما فيه من عناصر القوة والبقاء، ويدافع العدم بما فيه من أسباب الحياة، وذلك اذا تعلق المعنى بغرض عام فى حياة الانسانية جمعاء، وصلح أن يتخذ مثلاً سائراً بين جميع الأحياء. ومنها ما يخرج من فم قائله ميتاً، كالسقط الذى لم يستهل صارخاً، لا يستحق غسلا ولا تكفينا، لأنه ولد دفيناً! وكثيراً ما ترى ذلك فى شعر التقليد وقصائد المعارضات التى يجارى فيها الشعراء من تقدمهم من فحول الشعر وأعلام القريض

وبالجملة فمن عيوب الشعر التى لا تغتفر أن يُعنى الشعراء بالألفاظ دون ملاءمة المعانى للبيئة التى يعيشون فيها، ومسايرتها لثقافة العصر الذى قيل فيه الشعر

ومن هؤلاء المرحوم (محمود سامى البارودى) فقد كان رحمه الله غريباً فى مصره، وصياغة عصر غير عصره، ومغرّداً فى روض الملوين بأغاريد العباسيين، ومُسَمِّعاً دولة اسماعيل وتوفيق ما لا يطرب له غير الرشيد وأنداده من أمراء المؤمنين، فهو شاعر جاء متأخراً عن زمنه، بعيد العهد بينه وبين أقرانه وأساتذته من أوائل العصر العباسى إلى أواسط القرن الرابع، وهم الشعراء الثلاثون الذين اشتملت مختاراته الضخمة على كرائم قصائدهم، وعيون شعرهم فى أهم أبواب الشعر وأجل أغراضه فى تلك العصور وهى المديح والرثاء والأدب والصفات والنسيب والهجاء والزهد

ولم يزل هذا الكتاب منذُ طبع حتى اليوم ينبوعاً صافى المورد، ومنهلا عذب الشريعة، يَرِدُه الأدباء والمتأدبون ظماء، ويَصدُرون عنه رِواء؛ فكم من أديب نابغ فى هذا الجيل قد تخرّج عليه، وعَلَم من أعلام البيان العربى كان مرجع بيانه اليه، وشاعر خَلَّى زكت شاعريته، ونمت موهبته بالرواية عنه، والأخذ منه، ولسان منعقد حُلَّت عقدته عطالعته، وانطلق من وثاق اللكنة عذاكرته، وتعلّم صَقْل الألفاظ، وعلوّ البيان، وإشراقَ الأسلوب بدوام النظر فيه، ومحاكاة ما يعلق بالذهن واللسان منه؛ وكم خابط فى ظلمات العجمة استوضح معالم العربية الصريحة، وملامح الصور الشعرية الصحيحة بضوء مصباحه، فهذه المجموعة فى حُسن ما اشتملت عليه من قصائد المولّدين وجَدواها على الأدباء والمتأدبين، وكثرة من تخرّج عليها من الشعراء المجوّدين، أشبهُ الكتب بحماسة أبى تمام وإن اختص كل منهما بشعراء عصر، فمختار أبى تمام مقطعات من شعر العربية الخالصة التى لم يشُبها توليد، ومختار البارودى قصائد من شعر المولّدين؛ فحيث انتهى أبو تمام فى حماسته ابتدأ البارودى فى مختاراته، فهو كالذيل له، وإن كان

أضيق من الثوب ، وقد كان يقال : إن أبا تمام في اختياره ، أحسن منه في أشعاره

وعندي أن البارودي يشبهه في ذلك ، بل هو أولى منه بهذا الحكم الأدبي العادل

فجميع شعره ليس إلا تقليداً لشعر هؤلاء الثلاثين الذين اختار لهم ، ولا نزاع في أن الأصل أقوى في بابه من التقليد مهما بالغ المقلد في احكام عمله ، وتنوق في تقليده

أما أبو تمام فلم يقلد أحدا في شعره ، بل كان إمام مذهب شعري خاص موسوم به ، معزو اليه ؛ لم يُسبق فيه بأحد قبله ، وتابعه عليه كثيرون ممن عاصره أو جاء بعده

وناهيك عما كابده البارودي رحمه الله من العناء والجهد في جمع هذه الدواوين التي كانت تُعد في عصره من نوادر الكتب ونفائس الخزائن ، وذخائر الكنوز الخطية التي لم تصل اليها يد النشر بطبع ولا نسخ ، إذ كان بعضها في خزائن العظماء والسراة يتوارثونها فيما يتوارثون من ذخائر وطرائف لا يعرفون قيمتها ، ولا يدرون ما يُفعل بها ؛ وكان أكثرهم بل كلهم من أمراء الترك الذين استوطنوا هذه البلاد واتصلوا بملوكها ، إما بالمودة أو بالقربى أو بالعمل ، واستأثروا بالثروة الوافرة والجاه العريض ؛ وكانوا يحشدون في خزائنهم تلك الكتب مباهين بعضهم بعضاً في جمعها ، لا في نفعها ، وقد آل بعض هذه الخزائن الى دار الكتب المصرية من عهد قريب ، كمكتبة المرحوم طلعت بك وحليم باشا وغيرهما ، ويشهد الله ما فتح أكثر هؤلاء من كتبهم سِفراً ، ولا قرءوا منها سطرا ، وانما كان يبهجهم ما يرون في بعض هذه الكتب من النقوش الفنية البديعة ، والصور المتقنة الرفيعة ، ويبهرهم من الكتاب ما يرون فيه من نفاسة الغلاف ، والعلامات الذهبية في أواسط الصحف أو على الأطراف ، وغير ذلك مما يسترعي الأبصار ، دون الأفكار

ولا يزال بيننا الآن من الناس من لهم كلف شديد باقتناء الكتب : إما ببذل المال الكثير في شرائها ، أو باستهدائها من مؤلفيها وجمعيات نشرها ، ويتنوقون في تجليدها تجليداً حسناً ، وينقشون أسماءهم عليها بالذهب ، ويرتبونها في خزائنها ترتيباً متقناً ، وينسقونها في مواضعها تنسيقاً فنياً يبهج الناظر ، متوخين في ترتيبها التجانس في الألوان والأحجام ، دون العلوم والموضوعات ، إذ كانوا لا يفقهون من ذلك قليلا ولا كثيرا ، ولا يدركون من نفعها جليلا ولا حقيرا ؛ معتقدين أن حجرة الكتب مما تتم به مرافق البيت ، كحجرة الزائرين وحجرة الطعام وما إليها ، فان قدم عليهم زائر أدخلوه حجرة الكتب ليرى أثر النعمة عليهم ، بجمع هذه التحف لديهم

وكان بعض هذا الكنز الثمين مدفونا بين أنقاب المساجد وفي كُوى الزوايا في حراسة الجهلة من خدمها ، يبيعونه لتجار الفرنجة بيع يوسف بثمن ( بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين )

فتفرق أكثر هذه الكتب في العواصم الأوربية ، إما في مكاتبها العامة ، أو في الخزائن الخاصة ، والأدباء والعلماء في الشرق يتلهفون شوقاً اليها ، ويتحرقون أسفاً عليها ، ويسمعون بها سماعهم بأصحابها ، حاسبين انها انقرضت بانقراضهم ، وذهبت بذهابهم ؛ وهي تُختلس من بلادهم ، وتُنتهب من بين أيديهم ؛ واللغة التي أشفقت على الموت ، وأشرفت على التحدر ، في حاجة ماسة الى نهضة كبرى لأحيائها ، وقوام تلك النهضة هو احياء تلك المخطوطات البالية ، بل الآثار الباقية لأعلام البيان وأمراء الكلام من الكتاب والشعراء ، فلبثت هذه الكتب في ظلمات الخزائن مئات من السنين تتعاقب عليها الحقب والأجيال ، ويتضافر على تعطيل الانتفاع بها الجهل والاهمال ، وتنتفع الجرذان والأرَضة بأكلها ، أكثر مما ينتفع الأدباء والعلماء بفضلها ؛ حتى أتاح الله لها ذلك الأديب النابغ ، والشاعر الفذ ، فتولى نظارة ديوان الأوقاف ، وجمع ما بقي من هذه الكتب في مخابئها ؛ وكان هذا هو بدء العمل في إقامة دار للكتب في مصر

ولا يغيبن عن ذهنك أن ما بذله ذلك النابغة رحمه الله من الجهود المضنية في الظفر بتلك الدواوين التي جمع منها مختاراته ، لم يكن بأكثر مشقة مما عاناه من التعب المُمض ، والنصب المُقض ، في تصحيح ما أفسدته أيدي الجهلة من النساخ بل للنساخ من ألفاظها ، وإصلاح المحرف من كلمها ، وتكميل الناقص من أبياتها ، وإعادة البهاء والرونق إلى ما شوه الجهل من جمالها ، ومسخ من صورها ، وطمس من معالمها ، وإن أيسر ذلك لما يستنزف الجهود ، ويستنفد الزمن الممدود ، والعمر المحدود ؛ فانك لا تكاد تفتح أحد هذه الدواوين المخطوطة